مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

النجدة العُمانية لتحرير قلعة يسوع من البرتغاليين سنة ١٦٩٦م وأثر ذلك على وجودهم في شرق أفريقيا

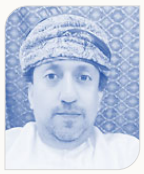

د. خليل بن عبد الله بن سليمان العجمي

باحث في التاريخ العُماني

وزارة التربية والتعليم

سلطنة عُمان

مُلَخّص

سيتناول هذا المقال الدور العُماني لنجدة قلعة يسوع في ممباسا والتي كان تعتبر المعقل الثاني لوجودهم في شرق أفريقيا باتخاذها مركزا لعملياتهم رغم محاولة العمانيون الاستيلاء عليه منذ عصر الإمام سلطان بن سيف الأول حينما كانت تأتيه نداءات الاستغاثة من أهالي مدن شرق أفريقيا كتبا وفازا لتحريرهم من البرتغاليين ورغم أن العمانيين أحكموا سيطرتهم على حصن ممباسا إلا أنهم لم يستطيعوا السيطرة على قلعتها المعروفة بقلعة يسوع، نتيجة مناعتها وحجم الإمدادات التي كانت تتلقاها، إلا أنه في نهاية الأمر سيطرت عليها القوات العُمانية بعد حوالي ثلاثين سنة من هجومهم الأول على ممباسا زمن الإمام سيف بن سلطان الأول (١٦٤٩م –١٦٨٠م) نتيجة التعاون الذي حصل بين القوات العمانية وسكان الساحل الشرقي الأفريقي. تم تقسيم البحث إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة، حيث خصصت المقدمة للحديث عن الحملات الأولى التي قام بها اليعاربة لشرق أفريقيا وخاصة الحملات التي وجهت إلى ممباسا، وسيستعرض الحصار الذي فرضه العمانيون على قلعة يسوع. ومحاولاتهم في حصار القلعة من خلال استمالتهم لحكام بتا وممباسا ومحاولاتهم المتكررة لكسر الحصار على القلعة، كما ستتبع الحملة البحرية التي أرسلها الإمام سيف بن سلطان الأول (١٦٩٢-١٧١١م) والمكونة من سبع سفن وتعرضها لإحطار العواصف البحرية، وكذلك عندما رست بالقرب من قلعة يسوع، وستصف مجريات الحصار والهجمات التي شنوها على القلعة، والدور الذي لعبته المدفعية العمانية في كسر ذلك الحصار رغم محاولة البرتغاليين المتواجدين في مراكزهم المختلفة من تقديم المساعدة لجنودهم المرابطين. أما المبحث الثاني فيتناول الآثار التي ترتبت على سقوط القلعة وأثر ضعف الروح المعنوية للبرتغاليين وتفشي مرض الطاعون على انهزام الروح المعنوية لجنودهم، كما سيتطرق لأبرز التكتيكات العسكرية التي اتبعها الأسطول العماني للهجوم على القلعة، وسياسة التسامح التي اتبعها الجيش العماني بحق المتواجدين في القلعة، وفي نهاية المقال سيتم التطرق لذكر النتائج المترتبة على سقوط القلعة بالنسبة للعمانيين والمتمثلة في اتساع وجودهم في شرق أفريقيا من جهة، ومن جهة أخرى اعتبر عدم تمكن البرتغاليين إحكام سيطرتهم على ممباسا وقلعتها الحصينة دليلا بدء ينحر جسم الإمبراطورية البرتغالية في المحيط الهندي. وستنتهي الدراسة بخاتمة والتوصية ومن ثم ذكر مصادر ومراجع البحث.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٦ يونيو ٢٠٢٢

تـاريخ قبــول النشــر: ٢٨ أغسطس ٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

الأسطول العماني؛ قلعة يسوع؛ قلعة ممباسا؛ الإمبراطورية البرتغالية؛ النجدة العمانية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.299095

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

خليل بن عبد الله بن سليمان العجمي. "النجدة العمانية لتحرير قلعة يسوع من البرتغاليين سنة ١٦٩٦م وأثر ذلك على وجودهم في شرق أفريقيا".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد السابع والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢٢. ص ٩٦ – ١٠٣.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: alhadi33@hotmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّوريةُ كان التَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةُ

بعد أن أحكم البرتغاليون سيطرتهم على ممباسا[١] في أواخر القرن السادس عشر الميلادي رغبوا في مواصلة إخضاعهم لمناطق مختلفة في شرق أفريقيا وخاصة بتا التي كان تحكمها قبيلة النباهنة العُمانية، وتمكنوا من ذلك سنة ١٦٣٢م، حيث لاقى سكان ممباسا سنة والعرب خاصة الويل من بطشهم وتحملوا مشاق العذاب لمدة نصف قرن من الزمن، وساد زنجبار حالة من الرعب صاحبها يأس من قبل السكان من جموع البرتغاليين، فاتصل السكان بالإمام سلطان بن سيف (١٦٤٩م – ١٦٨٠م) [٢] لتقديم النجدة لهم فأرسل لهم الإمام شخص يدعى (شهداد شت) وبعض الجنود لقتال البرتغاليين، إلا أن شهداد كانت له رؤية في ذلك وأخبر الإمام بها وهي أن يذهب والجنود قبل أن يرسل الإمام جيشا، ويتنكر في زي السكان ويتأقلم معهم ويعمل على جمع كل المعلومات عن الحامية العسكرية البرتغالية هناك، بحجة المتاجرة مع سكان الجزيرة، لكي يكون على دراية بأوضاع الحامية العسكرية البرتغالية [٣].

بدأت أول العمليات الحربية العُمانية ضد البرتغاليين في شرق أفريقيا سنة ١٦٥٢م عندما أستنجد ملوك زنجبار وبمبا [٤] Pomba بالإمام سلطان بن سيف الأول بعدما ضاقوا ذرعا من أعمال البرتغاليين وممارستهم الظالمة بحق شعوبهم، فأرسل الإمام أسطوله الحربي إلى هناك لإعادة السيطرة على المنطقة، فتمكنت القوات العُمانية من هزيمة الحامية العسكرية البرتغالية في زنجبار وقتل قائدها[٥]، رغم قلة الجنود العُمانيين الذين استطاعوا ، بفضل قوة عزيمتهم، دحر القوات البرتغالية خارج جزيرة بتّا وزنجبار[٦]

وقد احترم العُمانيون الأديان الأخرى الموجودة هناك كالمسيحيين, مما أدى هذا الأمر إلى دخول الكثيرين في الإسلام. و بعد أن أنهى الأسطول العُماني مهمته أرسلت حكومة البرتغال القائد فرانسيسكو دي سكاس كابريرا Francisco De sexas Cabreira لمهاجمة سكان هاتين المدينتين مستغلا فرصة عودة الأسطول العُماني إلى مسقط ، لكنهم لم يتمكنوا من إخضاع المدينتين بسبب عودة الأسطول العُماني مستفيداً من مساعدة السكان المحليين له، فما كان من حكومة البرتغال سوى إرسال حملة ثانية يقودها الكابتن كابريرا تتكون من ١٢٠ جندي برتغالي و ٤٠٠ جندي هندي و١٢٠جندي احتياط من عرب ممباسا الموالين لهم، حيث تمكنت تلك القوة من ضرب مصالح الأهالي هناك ، واستولت على سفن التجارة ، واستطاعت أن تخلص الأسرى الذين احتجزوا في بتا ، لكنها لم تستطيع ملاحقة الأسطول العُماني المتوجه إلى مسقط[٧]

وبعد هذه الحادثة دأب الأسطول العُماني على تلبية النداءات التي تأتيه من سكان شرق أفريقيا، فقلد لبى الإمام نداء أهالي بتا و فازا Faza لتحرير بلادهم من البرتغاليين ، وأرسل لذلك أسطوله الحربي سنة ١٦٦٠م لهاتين المدينتين ، وتمكن جيشه في النهاية من أحكام قبضته على فازا و ممباسا من دون أن يسيطر على قلعة يسوع[٨]، وعاد الإمام إلى مسقط بعد أن عين محمد بن مبارك المزروعي حاكما على ممباسا[٩] وبعد عودة الأسطول العُماني إلى مسقط استولى البرتغاليون من جديد على ممباسا ثانية سنة ١٦٦١م وحاولوا أن يكونوا أكثر إرضاء للسكان الذين أعطوهم حق تعيين حاكم مسلم منهم على المدينة على الرغم من كونه عميل لهم، ومارسوا سياسة التنكيل بالسكان وبرجال الدين، وحتى التجار العُمانيين لم يسلموا كذلك من المضايقات ، مما حدا بالأهالي لطلب النجدة من أمام عُمان من جديد[١٠]

لقد وجد أئمة اليعاربة استنجاد سكان شرق أفريقيا بهم فرصة سانحة للانتقام من البرتغاليين، وكواجب ديني أيضا يحتم عليهم تقديم المساعدة لإخوانهم في الدين، الذين ما ترددوا في تقديم المساعدة للأساطيل العُمانية في حربها مع البرتغاليين، بعد أن طردوهم من بلادهم، حيث أثبت الجيش العُماني في أول مقارعة بحرية له في تلك الأصقاع قدرته على فرض حصار بحري على حامية البرتغاليين في ممباسا، على الرغم من طلب قائد الحامية جوزيف بونلهو داسلفا Joseph Bottelho Silva المساندة من جوا، ولم يفكوا الحصار إلا في سنة ١٦٦٥م[١١]

لقد تمكن الإمام سلطان بن سيف الأول من إحكام سيطرته على حصن ممباسا بعد مرور خمس سنوات من استيلاءه على المدينة، فعمل على إصلاح الحصن، وترميمه وأمر بتزويد الجنود بالطعام بعد تعيينه محمد بن مبارك المزروعي قائدا على الحصن كما ذكرنا، لكن ذلك لم يستمر طويلا إذا تمكن البرتغاليين من استعادته [١٢]، وفي سنة ١٦٦٦م قام عرب الصومال ببعث رسالة سرية إلى الإمام سلطان بن سيف الأول أوضحوا فيها الظلم والمعاناة التي وقعت عليهم من جراء الأعمال التعسفية التي يمارسها البرتغاليون ضدهم، ورغبتهم في الخلاص منهم[١٣]، فاستجاب الإمام لهم، وبعث قائده محمد بن مسعود الصارمي على رأس جيش بحري، وقع الطرفان في معركة بحرية تمكنت قوات الإمام من طرد المحتلين من أراضي

الصومال من دون أن يستقروا بها، بل جعلوا إدارة شؤونها بتصرف القبائل المحلية هناك.

وقد عم الفرح أرض الصومال بعد أخراج البرتغاليين منها و"ورجع الأمير إلى عُمان مسرور الحال، وأخبر الإمام أخبار سارة عن نهاية القتال ضد الذين كانوا يفعلون أمور المكروه والمنكر، وذكر أن المسلمين يدعون له بالعمر الطويل، والخير الجزيل، لأنه دفع عنهم الذل والبلوى، وتفضل فسمع منهم الشكوى، وكان ذلك الوقت سنة (١٠٧٦هـ/ ١٦٦٦م) وطاب قلب الإمام لذلك"[١٤].

ولعل ما دفع الإمام لإرسال لتلك الحملات هو رغبته في نصرة بني دينه من العدو المحتل ولم تكن لديه نية في البقاء في أراضي الصومال وإنما فضل بقاء الحكم في يد أهلها، وفضل للأسطول العُماني الرجوع إلى مسقط دون أن تكون له نية في البقاء.

وفي سنة ١٦٦٩م شن الأسطول العُماني هجوما على الحامية البرتغالية في موزنبيق، وكانت هذه أولى المحاولات التي يصل فيها الأسطول العُماني إلى هذه المنطقة، كان الهدف منها تأديب البرتغاليين بسبب مضايقتهم للإمارات العربية على ساحل شرق أفريقيا من جهة ولكي يعمل العُمانيون على ترسيخ نشاطهم إلى ما بعد جنوب موزنبيق من جهه، ولتأمين حركة الملاحة البحرية العربية، وضرب مصالح البرتغاليين من جهة أخرى. كما نجح العُمانيون في استمالة الحاكم المحلي في بتا ومباسا من أجل حصار المدينة من دون أن يسيطروا على القلعة التي استمات البرتغاليون في الدفاع عنها[١٥]، ولم يفد التكتيك الحربي الذي أستخدمه العُمانيون والمتمثل في شق حفرة موصلة إلى القلعة، لان البرتغاليين اكتشفوا أمر السراديب وزرعوها بالمتفجرات التي أودت بحياة بعض المقاتلين[١٦]. ولكن في النهاية كان للعُمانيين استفادة من هذه الحملة تمثلت في الجوانب الآتية:

١- زيادة الثقة في أنفسهم وتيقنهم في مقدرتهم على الحصار الطويل.

٢- قدرة البحرية العُمانية على التعمق إلى أماكن بعيدة، بعد عشرين سنة من فتح مسقط، يدل على المكانة التي وصلت إليها.

٣- كانت هذه بداية لسلسة الحُصُرٌ التي قامت البحرية العُمانية بفرضها على المواقع البرتغالية، وهذا ما سيتيح للعُمانيين بعد عشرين سنة أخرى من أن يفكوا الحصار على قلعة مباسا.

ويصور لنا الشيخ خلف بن سنان فتوحات الإمام سلطان بن سيف الأول في شرق أفريقيا من خلال قصيدته الميمية التالية[١٧]:

ومباسا أذاقهم بأسا
ولقد في مفازة فاز منهم
بئيسا سيئت به الأصنام
بمفاز زلت به الأزلام

وفي شهر أغسطس سنة ١٦٧٨م أرسل البرتغاليون أسطولهم الحربي إلى شرق أفريقيا من أجل إحكام سيطرتهم على المنطقة، حتى لا يفقدوها على اعتبار أنها البوابة المؤدية إلى الهند، فعندما وصل الأسطول إلى هناك توجه إلى فازا ومناطق سيوSiyu ولامو Lamu وماندا Manda نتيجة تلقيه الإمدادات من جوا، لكنه تفاجأ بوصول الأسطول العُماني على رأس أربع سفن حربية في بداية سنة ١٦٧٩م التي أنزلت الجيش العُماني في اليابسة تمهيدا لشنهم عملية واسعة أدت في نهاية الأمر لانسحاب البرتغاليين إلى موزنبيق، وتم لهم تحرير المناطق هناك[١٨] مستفيدين من توافق المصالح بينهم وبين سكان تلك البلدان وكرهم للبرتغاليين، فالعُمانيون كانوا مصرّين على الانتقام منهم يدفعهم إلى ذلك فرحة الانتصارات السابقة والمكانة الدينية التي سوف يحظون بها إذا قتلوا في سبيل الدفاع عن دينهم، أما البرتغاليون فكان عليهم الصمود للمحافظة على أمجادهم البحرية في شرق أفريقيا بعد أن خسروا جميع ما لديهم في الخليج العربي[١٩].

وفي عهد الإمام بلعرب بن سلطان(١٧٨٠-١٧٩٢م) نجحت القوات العُمانية من إحباط محاولة للبرتغاليين للاستيلاء على بتا سنة ١٦٨٦م فما كان من القائد البرتغالي في مباسا سوى المحاولة مرة ثانية في السنة التالية، لكن هذه المرة كان للعامل الطبيعي والمتمثل في الموجات البحرية دورا في دفع أسطولهم بعيدا عن المدينة، ولم تفد محاولات قائد الأسطول البرتغالي في استعادتها رغم إرساله حملة ثانية في مايو ١٦٨٧م وتلقيه دعم من أمير فازا للاستيلاء على المدينة إلا أنهم تفاجئوا بالسفن العُمانية معتصمة في ميناء بتا، فخشى الاصطدام به وفضل الانسحاب راجعاً إلى مباسا، مفضلا استغلال عودة الأسطول العُماني إلى مسقط في شهر أغسطس في احتلال المدينة، من مما حدا بالسكان للاستنجاد بالعمانيين الذين تمكنوا من جديد من استعادتها[٢٠].

أولاً: العُمانيون وحصار قلعة ممباسا

بعد أن ضاق سكان ممباسا ذرعا من أعمال البرتغاليين التعسفية بحقهم وخصوصا أنها كانت موطناً لإفراد من قبيلة المنادزة العمانية، أخبرهم شخص من البلوش يدعى بـ " الجمادار جوت" والذي كان يعمل كمخبر سري للعُمانيين ليتقصى الحقائق عن البرتغاليين أن الفرصة قد حانت لطلب النجدة من إمام عُمان فقرروا تكوين وفدا من وجهاء ممباسا للسفر إلى عُمان لشكاية الحال للإمام سيف بن سلطان الأول(١٦٩٢-١٧١١م) من البرتغاليين، وأخبروه برغبتهم في الحصول على المساعدة [٢١].

وافق الإمام على طلبهم فأمر أسطوله الحربي بالتحرك في ١امارس ١٦٩٦م على رأس حملة مكونة من سبع سفن تحمل زهاء ثلاثة ألاف رجل برفقة أمير مقاطعة لامو الذي يبدو أنه كان على اتصال بالإمام للتحالف معاً ضد البرتغاليين، حيث واجه الأسطول في رحلته أمواج المحيط، وعندما وصوله إلى ممباسا أرسى بالقرب من قلعتها، فأطلقت القوة التي كانت في القلعة إطلاق النار تجاه، وبدورها فتحت السفن العُمانية نيرانها باتجاه القلعة، التي كانت تضم في داخلها حوالي ثلاثمائة سواحلي من الموالين للبرتغاليين من سكان بتّا و ماليندي، وعدد بسيط من البرتغاليين يقدرون بخمسة أشخاص[٢٢].

اصدر قائد القوات العُمانية أوامره بالنزول إلى اليابسة بعد أن هرب الجنود المدافعين عن القلعة بداخلها، واستولى العمانيين على ما تبقى من مدافعهم المتروكة خارج القلعة في الهجوم على القلعة التي صمدت جدرانها، ودب التعب في العُمانيين بعدما تيقنوا من استحالة السيطرة على القلعة في هذه الحالة[٢٣] . رغم أنهم أحكموا سيطرتهم على القلعة بفضل المدفعية التي امتلكوها والتي عملوا بها على تدمير أجزاء مختلفة من القلعة، رغم محاولة البرتغاليين إرسال المساعدات للمحاصرين لهم من موزنبيق من دون أي نتيجة تذكر؛ حيث تم القبض على قواربهم، مما أشعل نوع من الخوف لدى السكان الموالين للبرتغاليين الذين اضطروا للهرب إلى داخل القلعة.

وفي ٢٥ أغسطس١٦٩٦م غادر قائد الأسطول العُماني ممباسا بعد علمه بطول الحصار تاركًا قوة تقدر بتسعمائة جندي ليستمروا في الحصار نتيجة مرض الم به من جهة والصدمة التي تعرض لها نتيجة رفض سكان بمبا Pomba تزويد العُمانيين بما يحتاجونه من المواد الأساسية من الغذاء والماء[٢٤].

وبنهاية سنة ١٦٩٦م تمكن البرتغاليون من إرسال النجدة التي استطاعت أن تمد المحاصرين بالطعام والمؤن والعتاد والسلاح دون أن يقوي ذلك حاميتهم رغم إغرائهم للقبائل الزنجية بالأموال لتحفيزهم على المشاركة معهم ضد العُمانيين، فانسحب قائد الأسطول البرتغالي إلى جوا[٢٥]، كما تمكن البرتغاليون من استغلال طريق (سان انطونيو) الأقل صلاحية الذي كان لا يسيطر عليه العُمانيون في الدخول والتسلل إلى القلعة وإنزال بعض التجار والبحارة فيها، وعندما علم العُمانيون بهذا العمل قاموا بإحراق إحدى سفن البرتغاليين وإعطابها، إذا أدركنا أن العُمانيين كانوا يسطرون على القسم الصالح من ميناء ممباسا والمعروف بـ (كليندياني)، حيث تحاشى البرتغاليون الاقتراب من هذا القسم خشية الاصطدام بهم[٢٦] .

ونتيجة طول فترة للحصار تفشت الأمراض بين الجنود البرتغاليين المرابطين داخل القلعة وانتشر بينهم مرض الطاعون مما أدى إلى موت ثلاثة إلى أربعة أشخاص يوميا وبنهاية يناير ١٦٩٧م بقى العدد القليل من الجنود داخل القلعة وتزايد عدد الأشخاص المتوفين داخلها [٢٧].

وفي صباح العشرين من يوليو سنة ١٦٩٧م شن العُمانيون هجوماً مباغتاً على القلعة، تمكن المحاصرين من صده، وانتهى هذا الهجوم من قتل ثمانية أشخاص وبعض النساء العاملات في القلعة، وثلاثة من البرتغاليين، وفضل من كان بداخل القلعة الموت على الهرب عندما حانت لهم الفرصة، بينما فضل القائد موجو دي ميلو Mogo De Mello الهرب.

وبعد هذه الحادثة ازدادت معنويات الجنود العُمانيين بوصول حملة مساندة لهم مكونة من سبع سفن تحمل ما يقارب مائة رجل من بتا بتاريخ ٢٣ نوفمبر١٦٩٧م حامله مجموعة من المدافع تتراوح في بعض السفن من ٢٢ – ٢٨ مدفعا، استخدموها في شن سلسلة الغارات من المفاجئة على القلعة، وإطلاقهم القنابل الحارقة على المحاصرين رغم أن المدافعين تمكنوا أحيانا من تدمير بعض البطاريات للمهاجمين[٢٨].

وفي شهر ديسمبر١٦٩٧م قام حاكم موزنبيق بإرسال أسطول لنجدة من في القلعة شاقاً طريقه وسط الأسطول العُماني، تمكن من تسلق إسوار القلعة بعد تلقيه مناوشات حربية لمساندة من في الداخل وكان عددهم حوالي مائة وخمسين برتغاليا وبين مائتين إلى ثلاثمائة من الهنود الذين تمكنوا من دخول القلعة خلال فترة الحصار، ومن سكان السواحل الذين استطاعوا أن يمدوهم بالمؤن والطعام والذخائر وتمكنوا من إنعاش المحاصرين لفترة قصيرة من الزمن، إلا أنه سرعان ما ساءت الأمور بعد نفاذ الإمدادات الغذائية والصحية داخل القلعة وعاد الموت يحصدهم من جديد، ولم تستطيع السلطات البرتغالية سواء في جوا أو

لشبونة تقديم المساعدة لهم[٢٩]، بينما أستمر العُمانيون في حصار القلعة رغم قدوم النجدات البرتغالية من عدة مناطق في شرق أفريقيا، فقدَ ولَّد فيهم طول فترة الحصار اليأس والهزيمة وفقد الشعور بالنجاة ، مما أدى لانهيار معنوياتهم[٣٠].

ولقد شاهد البحار البرتغالي الكابتن كيد Kidd من على سفينته ادفنشر جالي Advernture Galley السفن العُمانية تحاصر القلعة أثناء تجواله في الساحل الشرقي لإفريقيا، وعند اقترابه من ممباسا، شاهد العلم العُماني الأحمر يرفرف على الأسطول العُماني رغم محاولته تقديم المساعدة للمحاصرين، لكنه لم يستطيع لصعوبة مواجهة الأسطول العُماني حسب اعتقاده، فكانت هذه المرة الأولى التي يحس فيها هذا البحار المغامر بالفشل بعد فترة حافلة بحب المغامرة [٣١]، ولقد استغل العُمانيون بقيادة ناصر بن عبدالله فرصة مرض قائد الحامية البرتغالي (باربوسا Barbosa) وحاجته للدواء حيث أرسل بهذا الخصوص بعض الشباب للبحث عن أعشاب للتداوي ، لكنهم تم إلقاء القبض عليهم من قبل العُمانيين، مما أدى لانتشار اليأس بين المحاصرين[٣٢].

ولعل وفاة قائد الحامية البرتغالي جعل المرابطين في القلعة في وضع لا يحسدون عليه، إذا أضفنا أن انتشار الأمراض بينهم، ونقص المؤن والأدوية وشعورهم بالمصير المجهول جعلهم في خوف دائم، في الوقت الذي كان فيه العُمانيون يتلقون الإمدادات من مسقط، وجنودهم يتم استبدالهم بين فترة وأخرى، ويتمتعوا بقدر كافي من الأطعمة والمياه بعكس الجنود في القلعة والذين فقدوا الأمل في البقاء على قيد الحياة، رغم أنهم كانوا مصممين على مواصلة الحصار وتيقنهم بإمكانية النصر، على الرغم من أن أطراف عرضت تقديم المساعدة للبرتغاليين بطريقة غير مباشرة كملكة زنجبار(الملكة فاطمة بنت حسن)[٣٣]، التي أرسلت رسالة إلى نائب الملك البرتغالي في جوا تحثه على سرعة إرسال النجدة لفك الحصار، خوفا على انتقال الحصار إلى عاصمة ملكها، فاستجاب نائب الملك لذلك وجهز حملة لفك الحصار إلا أنها لم تستطيع من الوصول في الوقت المناسب.

وبحلول الساعة السابعة من صباح يوم السبت ١٣ ديسمبر ١٦٩٨م أمر قائد الأسطول العُماني بالهجوم على القلعة، وهلل الجيش بنداء واحد "**الله أكبر**" بعد أن تسلقوا القلعة وقتلوا من بها، وأصيب قائد القلعة بطلق ناري في رأسه[٣٤]، وأثناء عملية الاقتحام لجأ العُمانيون إلى عمل ثقوب لأسوار القلعة، وأغروا بعض من في داخلها للاشتراك إلى جانبهم لجلب المعلومات عما يجري في القلعة مقابل منحهم العفو، وقد تلقى الجيش المقتحم عمليات مساندة من السفن العُمانية التي أطلقت نيرانها تجاه بعض المواقع في القلعة[٣٥]. وقد وصف الفقيه بشير بن عامر الفزاري(حي:١٦٩٨م) الحصار الذي شنه العُمانيين على القلعة [٣٦]

فأتاهم جيش الإمام كأنه
سيلٌ أبى بالردى يتحدر
حملتهم في البحر خيل سفائنٍ
من دونها الخيل الجياد الضمر
حتى أتوا ممباسه فثووا بها كالأسد
تمشي في السلاح وتخطر
صعدوا إليهم بعد طول حصارهم
بسلالم كادت تهي وتكسر
لكنما الرحمن أيد حزبه
والله يخذل من يشاء وينصر

وبعد دخول العُمانيين إلى الحصن لم يقتلوا أي أحد كان موجودا في القلعة من المسالمين، واستولوا على ثروات الحصن بعد أن دلهم عليها أحد البحارة، وهكذا تمكن العُمانيين من إحكام زمام الأمور في ممباسا والقوا القبض على ثمانية برتغاليين وثلاث هنود وامرأتين ممن كانوا في القلعة[٣٧]، حيث تم أخذهم إلى مسقط مقيدين بالحديد وأطلق سراح اثنين من الهنود وتمكن البعض منهم الفرار من قبضة العُمانيين[٣٨].

ونظرًا لتعاونها مع البرتغاليين أرسل الإمام سيف بن سلطان الأول أسطوله الحربي إلى زنجبار لإلقاء القبض على ملكتها فاطمة، بعد أن تبرأ الأهالي والجنود منها، وحملت إلى عُمان، حيث زج بها في السجن لمدة أثناء عشر سنة، ولم يفرج عنها حتى سنة ١٧١٠م عندما استجاب الإمام سيف لرغبة أبنها حاكم زنجبار المدعو حسن بن عبدالله الذي كان على علاقة جيدة مع العمانيين[٣٩].

وبعد الانتصار الذي حققه العُمانيون، تشكل وفد من زعماء قبائل ممباسا للقاء الإمام وتهنئته بالانتصار، وكان الوفد يضم في صفوفه مندوبين عن مختلف القبائل العربية والزنجية الموجودة في ممباسا، وعند وصولهم إلى عُمان استقبلهم الإمام وأكرمهم، وأمر لهم بالهبات والمساعدة، وأمر أن يحملوا إلى بلادهم على ظهر السفن الضخمة التابعة له وهي : كعب رأس، والملكي ، والفلكي، و أرسل معهم محمد بن علي العمري ليكون واليا على ممباسا بعد أن أباح القلعة للأهالي، واكتفى الإمام بأخذ الأسلحة، وحكم فيهم محمد العمري لفترة من

الزمن رجع بعدها إلى عُمان، وجعل عليهم على صالح بن محمد الحضرمي الذي أساء معاملة الأهالي فما كان منهم إلا إلى أن قدموا شكوى ضده إلى الإمام ، الذي أمر بالقبض عليه، وزج به في السجن[٤٠].

ثانيًا: ما بعد سقوط قلعة يسوع

على الرغم من طول فترة حصار قلعة ممباسا الممتدة من ١٥مارس ١٦٩٦م إلى ١٣ديسمبر ١٦٩٨م إلا أن ذلك أعطى القوات العُمانية المرابطة في شرق أفريقيا، وسكان الساحل الثقة في أنفسهم ليتعاونوا معا في طرد العدو المحتل من بلادهم، مما أشعل الحماس لديهم وأدى إلى قيامهم بثورات داخلية، كما أن وصول العُمانيين إلى تلك المناطق قد زاد الثقة في أنفسهم وإصرارهم على مواصلة الجهاد ضد البرتغاليين أينما وجدوا[٤١].

وأدى الانتصار لاضطرار البرتغاليون إلى ترك مواقعهم على طول ساحل شرق أفريقيا حتى خليج دلجادو Cape Delgado ، على الرغم من محاولاتهم المتكررة لانتزاع المدينة[٤٢] . وأذعنت للإمام سيف بن سلطان الأول مدينتي زنجبار وكلوه، واتجه جنوبا حتى وصل إلى حصن موزنبيق وحاصره ، وامتنع عن اقتحامه حتى لا يقع الجيش في الفخ الذي نصبه لهم البرتغاليون بعد ورود أنباء عن انفجار لغم أثناء الحصار أودى بحياة عدد من الجنود المحاصرين ، بينما أعترف سكان ممباسا بالولاء للإمام سيف[٤٣]، وبعد الاستيلاء على القلعة عرضت مدينة (مقديشو) الانضمام إلى لواء الإمام سيف[٤٤].

وكان احتلال ممباسا دليلاً على ضعف بدأ ينخر الإمبراطورية البرتغالية في المحيط الهندي، وأدركوا بعدها استحالة مقاومة العُمانيين لوحدهم وضرورة التحالف مع أعداءهم لمهاجمتهم، ومن اجل ذلك أرسل الحاكم البرتغالي في جوا مندوبا يدعى دوم غريغوريو بيريرا Dom Gregori Pereira لفارس للتحالف معاً لكنهم لم يجدوا آذان صاغية فاضطروا لعقد هدنة مع العُمانيين سنة ١٧٠٣م من أجل تسيير أمورهم في شرق أفريقيا وجاء هذا العرض من نائب الحاكم البرتغالي الذي أشار في اقتراحه قائلا: (.. أن العرب راغبون بالسلام، لأنهم يعرفون أن وارداتهم الأساسية من الرز يمكن قطعها بسهولة من قبل البرتغاليين.)[٤٥].

ويعلق كيركمان على نجاح العُمانيين في الاستيلاء على قلعة ممباسا بقولة: "كانت الحملة على ممبسه انتصارا كبيرا للعُمانيين حيث إنهم لم يفقدوا أي سفينة، كما أن خسائرهم في الأرواح لم تكن كبيرة على مدى ثلاث أعوام من الحصار"، وبالنسبة للبرتغاليين فلقد خسروا سفينة حربية وخمسا من سفن النقل وعدد كبير من الجنود. وبالسيطرة على الحصن أصبحت عُمان سيدة الساحل بأكمله حتى رأس دلجادو Cape Delgado في الجنوب[٤٦]. لكننا سنجد أن هذه الاتفاقية التي تم توقيعها بين الطرفين سنة ١٧٠٣م ستلغى وسيحاول الطرفان الانتقام من بعض، فقد قام الأسطول العُماني سنة ١٧٠٥م بمهاجمة دامان[٤٧] Daman وكبدوا البرتغاليين خسائر جسيمة[٤٨].

ولم يكن للعُمانيين أية نية في الإقامة في شرق أفريقيا وتكوين دولة خاضعة لهم فلقد حرص الأئمة على تعيين أشخاص لمنصب الولاة من سكان المنطقة، على اعتبار أنهم أدرى بشؤونها ، وخير دليل على ذلك بعد أن استولى الإمام سيف بن سلطان الأول على قلعة يسوع عين شخصاً من قبيلة المزارعة وهو الشيخ ناصر بن عبدالله المزروعي[٤٩]

ويفسر (سبنسر) ذلك: أن الأحداث التي عصفت بعُمان من صراعات داخلية وصراع بين أبناء البيت الحاكم قللت من اهتمام أئمة اليعاربة الذين أتوا بعد ذلك، مما جعلهم يصرفون عن الاهتمام بشرق أفريقيا مع أنهم قاموا بتعيين من ينوب عنهم حكامً مباشرين للاهتمام بتسيير شؤونها[٥٠]. لكن السلطة بقيت بيد أهلها، ولقد توفرت عدة عوامل هيئت لعُمان أن تتزعم حركة الجهاد ضد البرتغاليين في شرق أفريقيا أولها قرب الأراضي العُمانية من السواحل الأفريقية، وثانيا الاستفادة من الرياح الموسمية في تسيير السفن إلى تلك المنطقة مرتين في السنة، إذا أضفنا اكتساب أهل عُمان خبرة ملاحية منذ القدم للساحل الشرقي الأفريقي وما يحتويه من موارد طبيعية تمثل جل صادرات شرق أفريقيا مثل العاج والذهب والرقيق[٥١].

خَاتِمَةٌ

وهكـذا رأينـا الـدوافع مـن إرسـال الحمـلات العمانيـة إلى ممباسـا خـلال فـترة حكـم أئمـة اليعاربـة الأوائـل، والآثـار والمصاعب التي واجهها العمانيون في حصارهم للقلعة في أواخر القرن السابع عشر الميلادي مكنتهم بعد سنتين ونصف من الحصار من احتلالهم للقلعة، وأدى هذا الفتح لسيطرتهم على مـدن مهمـة في السـاحل الشرقي لأفريقيـا كزنجبـار وكلـوه إلى موزنبيق جنوبًا من جهة كما أن احتلال الحصن أشارة إلى ضعف بداء ينخر الإمبراطورية البرتغالية في المحيط الهندي وخسروا مركـز ثقلهـم في شرق أفريقيـا، حـتى أصـبح هـذا السـاحل تحـت السيطرة العمانية من دون أن يفرضوا حكمهم على المنطقة بل جعلوا الأمر بيد أهلها.

وقد توصلت الدراسة إلى أن ازدهار قوة الأسطول العماني الـذي لـم يكتـف بمقارعـة البرتغـاليين عـلى سـواحله، بـل ذهـب لحصارهم في أبرز معاقلهم في شرق أفريقيا مما يعكس تتطور قوة الأسطول العماني في أواخر عصر دولة اليعاربة. وقد كان من أهداف نشاط البحرية العمانية في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي تقديم المساعدة والنجدة للشعوب التي تستجدي بأئمة اليعاربة.

وتـوصي الدراسـة بتبـني مؤسسـات البحـث العلمـي سياسـة استقطاب الوثائق من الأرشيفات الأجنبية فيما يتعلق بفترة الاحـتلال البرتغـالي لعُمـان. وقيـام البـاحثين بدراسـة طبيعـة العلاقـات الاجتماعيـة والثقافيـة للعمـانيين في شرق أفريقيـا خلال فترة الدراسة.

الاحالات المرجعية:

(١) أحد المدن الساحلية التي تقع في شرق أفريقيا وتتبع دولة كينيا حاليًا، أما حصنها المشهور بيسوع فهو حصن بناه البرتغاليون في أواخر القرن السادس عشر الميلادي لحماية ميناء ممباسا.

(٢) الإمام سيف بن سلطان الأول ثاني أئمة دولة اليعاربة التي قامت في عُمان سنة ١٦٤٩م، للمزيد عن أعماله انظر: السالمي، نور الدين. **تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان**. ج٢، مكتبة الإمام نور الدين السالمي، مسقط: ٢٠٠٠، ص١٠٥.

(٣) حريز، سيد حامد. **المؤثرات العربية في الثقافة السواحلية في شرق أفريقيا**. ط١، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دار الجبيل، بيروت:١٩٨٨م، ص ١٨

(٤) تعرف بالجزيرة الخضراء، وهي أحد الجزر التابعة لأرخبيل زنجبار.

(٥) العجيلي، غانم محمد رميض. **الصراع العُماني البرتغالي في البحار الشرقية. ١٦٥٠-١٧٢٠م**.مجلة الوثيقة، ع١٣، س٧، مركز الوثائق التاريخية، البحرين: يوليو ١٩٨٨م، ص٨٥.

(6) Coupland, R. **East Africa and its invaders**. First edition. oxford at the Clarendon, London: 1938 pp67-68.

(٧) الغنيمي، عبد الفتاح مقلد. **الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا**. ط. ١، عالم الكتب، القاهرة: ١٩٩٨م، ص١٨٩.

(8) Coupland, Op.Cit, P.66.

(٩) السيار، عائشة. **دولة اليعاربة في عُمان وشرق أفريقيا**. ط٢، مطابع دار صحف الوحدة، أبو ظبي: ١٩٩٢م.

(١٠) الغنيمي. **المرجع السابق**. ص ١٩١.

(١١) العجيلي، غانم محمد رميض. **قيام حكم سلالة اليعاربة وانهياره في عُمان ١٦٢٤-١٧٤٩م**. رسالة ماجستير منشورة، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، القاهرة: ديسمبر ١٩٨٧م، ص٦٧.

(١٢) جيان، المسيو. **وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية**. نقله إلى العربية يوسف كمال، ط١، القاهرة: ١٩٢٧م، ص٢٥١-٢٥٢.

(١٣) شلبي، أحمد. **موسوعة التاريخ الإسلامي**. ج٦، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة:١٩٨٣م، ص٦٦٧.

(١٤) **نفسه**. ص٦٦٧.

(١٥) أحمد، أحمد، عبد النبي علي. **الصراع العُماني البرتغالي في شرق أفريقيا**. رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة:١٩٩٤م.، ص٥١.

(١٦) السيار. **المرجع السابق**. ص ١١٦.

(١٧) البطاشي، سيف بن حمود. **إيقاظ الوسنان في شعر وترجمة الشيخ خلف بن سنان**. ط ١، المطبعة الوطنية، مسقط: ١٩٩٥م.، ص٧٢.

(١٨) العجيلي. **قيام حكم**. ص٧١-٧٢.

(١٩) عثمان، عبد الرازق علي. **البرتغاليون في شرق أفريقيا وطردهم منها**. أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية، ج٢، مركز الدراسات والوثائق، الديوان الأميري: أغسطس ١٩٨٧م، ص٥٥.

(٢٠) العجيلي. **الصراع البحري**. ص٨٨

(٢١) المغيري، سعيد بن علي. **جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار**. تحقيق محمد علي الصليبي، ط٤، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط:٢٠٠١م، ص١٩.

(22) Boxer, C.R and Carlos De Azevedo. **Fort Jesus and the Portuguese in Mombasa 1593 – 1729**. London:1960, p59.

(٢٣) حنظل، فالح. **المفصل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة في عصر التوسع الأوروبي الأول**.ج١، مؤسسة دار الفكر للطباعة والنشر، أبوظبي: د.ت، ص١٠١.

(24) Boxer, **Op.Cit** , p60-61.

(٢٥) حنظل. **المفصل.** ص ١٠٢

(٢٦) أحمد. **المرجع السابق**. ص ٩٧

(27) Coupland, **Op.Cit**, P.68.

(28) Boxer, **Op.Cit** , p66.

(٢٩) أحمد. **المرجع السابق**. ص ٩٩.

(٣٠) حنظل. **المرجع السابق**. ص ١٠٥.

(٣١) أحمد. **المرجع السابق.** ص ٩٨.

(32) Eric, Axelson. **Portuguese in south East Africa 1600-1700**. first published, University press Johannesburg, cape town: 1960, p 174

(٣٣) أحمد، **المرجع السابق**. ص ١٠٠.

(٣٤) حنظل. **المرجع السابق**. ص ١٠٥

(٣٥) Axelson . **Op.Cit** , p174

(٣٦) الفزاري، بشير بن عامر. **ديوان الفزاري**. ط١، حققه: مهنا بن خلفان الخروصي، مكتبة المستشار الخاص لجلالة السلطان للشؤون الدينية والتاريخية، السيب:٢٠٠٧م، ص١٨٢.

(37) Coupland. **Op. Cit**, p 68.

(38) Axelson. **Op. Cit** , p.175.

(39) Hamilton, genesta.**in the wqke d agama the story of portuquese pioneers in east Afri**ca,London:1955: p.161-162.

(٤٠) المزروعي، الأمين بن علي. **مخطوط تاريخ ولاية المزارعة في أفريقيا الشرقية**. تحقيق إبراهيم الزين صغيرون، منشورات البحر الأحمر، لندن: ١٩٩٥م، ص ١٢٣.

(٤١) لاندن، روبرت جيران. **عُمان من ١٨٥٦م مسيرا ومصيرا**. ترجمة محمد أمين عبد الله، وزارة التراث لقومي والثقافة، مسقط: ١٩٨٥م، ص٥٠

(٤٢) قاسم، قاسم، جمال زكريا. **الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية**. دار الفكر العربي، مصر: ١٩٩٦م، ص١١١.

(٤٣) جيان. **المصدر السابق**. ص٣٥٥.

(٤٤) العجيلي. **قيام حكم**. ص ٧٦.

(٤٥) **نفسه**. ص٧٧.

(٤٦) أحمد. **المرجع السابق.** ص١٠١.

(٤٧) **دامان**: مدينة تجارية على ساحل البحر، تقع شمال بومباي في الهند، اشتهرت بالفن والطبيعة، بنيت هذه المدينة من جدران قوية، ويوجد بها كنيسة كاتدرائية ضخمة وبعض الكنائس الصغيرة وحصن قوي انظر:

Hamilton, Alexander. **A New Account of the east of the Indies**. Vol. 1, the Arconaut Press, London: 1930. p104.

(٤٨) العجيلي. **الصراع العُماني.** ص٩٠.

(٤٩) الفارسي، عبد الله بن صالح. **البوسعيديون حكام زنجبار**. ترجمة محمد أمين عبد الله سلسلة تراثنا، ع ٣، ط ٢، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط: ١٩٨٠، ص ١١٤

(٥٠) ترمنجهام، سبنسر. **الإسلام في شرق أفريقيا**. ترجمة وتعليق محمد عاطف النواوي، ط١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة: ١٩٧٣م، ص٥٦.

(٥١) عبد الحليم، رجب محمد. **العُمانيون والملاحة والتجارة ونشر الإسلام**. مطابع النهضة، مسقط: ١٩٨٩م، ص ١٦٥.